

الدراما الشعبية الجزائرية في الفترة الاستعمارية

قراءة من منظور الدراسات الاستعمارية

**Algerian Popular theatre in the Colonial Period  
A Reading from the Perspective of Colonial Studies**

أ.د. زهية طراحة\*

(1) أستاذة التعليم العالي، مخبر التمثلات الفكرية والثقافية، جامعة مولود معمري-تيزي، الجزائر.

[zahia.teraha@ummt0.dz](mailto:zahia.teraha@ummt0.dz)

تاريخ النشر: 2025/10/24

تاريخ القبول: 2025/07/18

تاريخ الإرسال: 2025/06/03

ملخص: يبحث هذا المقال في العروض المسرحية الشعبية، التي تمثل مظهراً من مظاهر المسرح أو ما يسمى بالأشكال شبه المسرحية، فهي تمثل مرحلة ما قبل ظهور المسرح ونشأته. وقد لعب المسرح أدواراً عديدة في الثقافة الجزائرية، حيث حافظ على التماسك الاجتماعي والذاكرة الثقافية والتاريخية وما قبل التاريخ للمجتمع الجزائري، ولذلك استقطب اهتمام الأنثروبولوجيين الغربيين، وخاصة الفرنسيين الذين قاموا بدراسات إثنوغرافية دقيقة حوله. يركز هذا المقال على أعمال عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي إدمون دوتي الذي كتب بشكل موسع عن الفولكلور الجزائري. وتتناول هذه الدراسة تحديد مفهوم مصطلحات: الترفيه الشعبي، والحفلات التنكرية، والمهرجانات الشعبية، وما إلى ذلك. كما تعرف الدراسة بالباحث إدمون دوتي وكتاباتاته الإثنوغرافية والاحتفالات الشعبية التي درسها، والنظريات الأنثروبولوجية التي اعتمدها في الدراسة، وهدف الدراسة وخلفيتها.

الكلمات المفتاحية: الدراما الشعبية، المشاهدات الشعائرية، الطقوس الكرنفالية، إدموند دوتي، الأنثروبولوجيا التطورية.

**Abstract :**

*This article examines the popular theatrical performances, which represent a manifestation of theatre or so-called semi-theatrical forms, as they represent a stage before the emergence and emergence of theatre. Theatre has played many roles in Algerian culture, preserving social cohesion and the cultural, historical and pre-historical memory of Algerian society, and has therefore attracted the attention of Western anthropologists, especially the French, who have carried out meticulous ethnographic studies on it. This*

\*المؤلف المرسل

article focuses on the work of French anthropologist Edmond Doutté, who has written extensively on Algerian folklore. This study deals with the conceptualisation of the terms: Folk entertainment, masquerades, folk festivals, etc. The study also introduces the researcher Edmond Doutté, his ethnographic writings, the popular celebrations he studied, the anthropological theories he adopted in the study, and the aim and background of the study.

**Key- words :** Popular theatre, ritual spectacle, carnival rituals, Edmond Doutté, evolutionary anthropology.

### النص

تمثل الدراما البدائية مظهرا من مظاهر المسرح أو ما يُسمى بالأشكال شبه المسرحية، لكونها تمثل ما قبل بداياته ونشأته. وقد بيّنت الدراسات والأبحاث ارتباط ظهور المسرح الإغريقي على سبيل المثال - بالاحتفالات الشعبية الخاصة بالإله "باخوس" (ديونيسوس)، الذي يعتبر في الميثولوجيا اليونانية إلها للطبيعة والزرع والثمار، والخمر بصفة أخص. فكان الإغريق يقيمون احتفالات بهيجة في فترة خصوبة الأرض وإثمارها وقد نشأ من ذلك المسرح الكوميدي (الكوميديا أو الملهة)، كما كانوا يقيمون له احتفالات بكائية حزينة في فترة جفاف الطبيعة والكروم ونشأ من ذلك المسرح التراجيدي (التراجيديا أو المأساة). وارتباط بدايات المسرح بالميثولوجيا والاحتفالات الشعبية، معروف في عدة ثقافات وحضارات، منها حضارات الشرق الأوسط القديم، كالحضارة السومرية والمصرية، وما احتفالات وأعياد موت وانبعث الإله أوزيريس المصري إلا دليل على ذلك.

وتمثل الدراما الشعبية أدوارا عدة في الثقافة الجزائرية، فهي من جهة لعبت دورا احتفاليا جماليا، ومن جهة أخرى حافظت على الترابط الاجتماعي والذاكرة الثقافية والتاريخية وما قبل التاريخية للمجتمع الجزائري، ولهذا نالت اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الغربيين خصوصا الفرنسيين، الذين قاموا بدراسات إثنوغرافية (ميدانية) كثيرة حول احتفالات "عاشوراء" والمولد النبوي و"عبد الأضحى" و"استحضر المطر" و"استقبال الربيع" و"نيران العنصرة"، ومختلف "الألعاب الشعبية"... الخ. ومن بين هؤلاء الأنثروبولوجيين: "ديسبرمي" (J.DESPARMET) و "إدمون دوتي" (Edmond



(Doutté) و"موسو" (J.C MUSSO) و"جون سيرفي" (J.SERVIER) و"بوسكيه" (G.H.Bousquet) وغيرهم. وقد قدّموا دراسات إثنوغرافية دقيقة عن الفرجة الشعبية التي كانوا يطلقون عليها حيناً اسم "الكرنفال" (Carnaval) وحيناً آخر "الاحتفالات الشعبية" (fêtes populaires) وتارة أخرى "احتفالات التنكر" (les mascarades) بسبب ارتباط تلك الاحتفالات بوضع الأقنعة الحيوانية وغيرها. وقد وصف أولئك الأنثروبولوجيون الغربيون أوقات ومواسم الفرجات الشعبية الجزائرية، والطقوس والمعتقدات المرافقة لها. وسيُخصّص هذا المقال لأعمال الأنثروبولوجي الفرنسي "إدمون دوتي" (Edmond Doutté) المختصّ في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الدينية بشمال إفريقيا والجزائر بصفة أخصّ، لأنّه كتب كثيراً عن الدراما الشعبيّة-أو الكرنفال- حيث كان يستقي مادة بحوثه من رحلاته الإثنوغرافية للجزائر والمغرب، ومن الدراسات التي سبقته. والتساؤلات التي تُطرح في هذه الدراسة هي: ما معنى الدراما الشعبيّة؟ من هو إدموند دوتي؟ وما هي الاحتفالات الشعبية الجزائرية التي اهتمّ بدراستها؟ وبأيّ منهج أو نظرية تمّت دراستها ولماذا؟ وما هو هدف الدراسة وخلفيتها؟

## 1. مظاهر الدراما الشعبية: المفهوم والمصطلح

يقصد هنا بمظاهر الدراما، تلك الأشكال البدائية لفنّ المسرح، من احتفالات وأعياد شعبية. فمن أهمّ العناصر القائمة على عرض الاحتفالية: الممثل، والحدث والتجسيد والأداء الحركي والنطقي. يعتبر الأداء الحركي، كلّ ما تقوم به الشخصوس من تمثيل حالة ما أو طقس أو رقصة أو تقمّص أو لعب دور شخصية روحية أو تاريخية أو من عوام الناس، أمّا النطق، فهو كلّ أداء يتعلّق بالأناشيد والترانيل والغناء والشعر والحوار... الخ. وفنّ المسرح الاحتفالي لدى الكثير من الباحثين، يرتبط بأول ملامح الوعي الفنيّ عند الإنسان البدائي، والتمثيل "المحاكاة" يرجع إلى نوع من اللعب والرّقص الشعائري الجماعي الذي يؤديه الصيادون قبل خروجهم إلى الصيد، لتجاوز المخاطر والفوز بالصيد الثمين. وقد استطاعت لعبة الفنّ الدرامي رغم بدائيتها أن تؤسّس مشاهد طقسية دينية مختلفة الأشكال، ما لبثت أن غدت مظاهر متأصلة في أداء المشهديات الشعائرية.

عن الدراما الشعبية، استخدم الأنثروبولوجيون الغربيون مصطلحات، منها مصطلحات "الكرنفال" ( le Carnaval )، وكلمة "كرنفال" مرادفة لكلمة "جنون"، و"انحراف"، وهي حسب بعض اللغويين، مشتقة من كلمة "كارن" "Carn" نسبة لكارو Caro بمعنى اللحم والبلع، لأنه يؤكل الكثير من اللحم خلال هذه الفترة للتعويض عن الامتناع المفروض طوال الصوم الكبير. وهناك رأي آخر، يُنسب لهذا الاسم أصل الكلمتين اللاتينيتين: "كارو" و"فال" (Caro, Vale) اللتين تحملان معنى "اللحوم، وداعاً!". ويبدو أنه من المستحيل معرفة الفترة التي نشأ فيه الكرنفال، أو الحفلات التنكرية، وتعبير أفضل: إنها تقليد أو بقايا من المهرجانات الشعبية للقدماء وللآباء، مثل "البكاناليات" ( les Bacchanales )، و"الويركاليات" ( les Lupercales )، و"الساتورناليات" (les Saturnales)، وعيد الحمقى (la fête des fous)، وعيد الروح ( la fête de l'âme )، الخ. كان أول شكل من أشكال الكرنفال المقدس يسمى الكيروب cherubs (الكرنفال المقدس) عند المصريين، والباخاناليا عند الإغريق، والديونيسيين عند الرومان. كانت هذه المهرجانات المقنعة تهدف إلى الاحتفال بألوهية باخوس وقدرته الكلية وقوته وخصوبته.<sup>2</sup> نستخلص مما سبق، أنه تم التركيز على استخدام مصطلح "كرنفال" الذي يعني التنكر والاحتفال، المرتبط بالميثولوجيا القديمة.

وقد استخدم "دوتي" في حديثه عن الاحتفالات والأعياد شبه المسرحية بالجزائر، مصطلح "الكرنفال" وجاء ذلك بخط كبير في عنوان الفصل الحادي عشر "بقايا السحر القديم: الكرنفال" Les débris de l'antique magie : le carnaval.<sup>3</sup> وفي الواقع الحي نجد تسمية العيد، والاحتفال مرتبط بتسمية العيد نفسه، مثل، "العيد الصغير" والعيد الكبير، و"عاشوراء"، و"الربيع"، و"العام الجديد"... الخ. وبالنسبة للأعياد الاحتفالية الشعبية (المهرجانات) كعاشوراء والأضحى، التي يسميها "دوتي" بـ"الكرنفال" نجد لها تسميا أخرى مثل "بو جلود"، و"شايب عاشورا"... الخ، وهي تسميات ذكرها "دوتي" على سبيل الموضوعية العلمية الإثنوغرافية. ويذكر "دوتي" مصطلحا آخر أكثر أهمية، وهو مصطلح "الفرجة" La Ferâja، وهو المصطلح الذي يقدم للكرنفال بالمغرب، وبصفة



أخصّ بـ"فاس" وبجنوب المغرب.<sup>4</sup> وفي الواقع الشعبي الحيّ بالجزائر يُستخدم كثيرا مصطلح العيد، فيُقال "العيد الكبير"، والعيد الصغير"، وأحيانا أخرى يُستخدم فقط اسم العيد، فيُقال، "المولد"، و"عاشورا"، و"يناير"، وقد يُضاف لاسم العيد مصطلح آخر مثل "أمقرا ان تفسوث" أي "استقبال الربيع..." الخ.

والأهمّ في كلمة العيد أنّها ذات دلالة عميقة مرتبطة بفكرة الخلق والموت والعودة، وهي أدقّ مصطلح يعبر عن فكرة الموت والتجدّد التي نجدّها منتشرة في الأعياد الموسميّة كالسنة الجديدة، وبداية الربيع. وكما يرتبط المصطلح بدورة الطبيعة فهو يرتبط أيضا بدورة الإنسان في الواقع من ميلاد وموت، وبدورة الإنسان في الأديان من ميلاد وموت وبعث. جاء في لسان العرب: "عود: في صفات الله تعالى: المبدئ المعيد، قال الأزهري: بدأ الله الخلق إحياءً ثمّ يميتهم ثمّ يعيدهم أحياء كما كانوا. قال الله تعالى: "وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده". وقال: "إنّه هو يبدئ ويعيد"، فهو سبحانه وتعالى الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة."<sup>5</sup>

نرجع إلى فكرة ارتباط بدايات المسرح بالدين، وهي فكرة منتشرة في الثقافات والحضارات القديمة. ويتفق الكثير من المختصين على أنّ مصر هي الوطن الأمّ للمسرحيات الدينيّة، التي ارتبطت بالإلهين "أوزيريس" و"إيزيس"، وتلخّصت أساسا في عبور المكرّس عددا من الاختبارات التي ترمز لموته وبعثه من بين الأموات. كانوا يصنعون من التراب شكلا يشبه شكل أوزيريس، يرويّه الكاهن بالماء، وفي الوقت المحدّد تكون الأعشاب الجديدة قد غطّت الشكل. وقد ارتبطت بهذا الطقّس شعيرتا "حفر الأرض" للبذار الرمزي، و"قود العجول": كان الفرعون الملك الكاهن يقود أربعة عجول يدور بها أربع دورات حول المعبد، فتطأ العجول الأرض وتغطّي بذلك مكان قبر أوزيريس حتى لا يستطيع الخصوم العثور عليه فيمنعوا الإله من العودة إلى الحياة.<sup>(6)</sup>

## 2. إدmond دوتي وأهمّ كتاباته

دوتي إدmond Doutté Edmond ولد بـ "إيفرو" (Evreux) سنة 1867م وتوفي بـ"باريس" (Paris) سنة 1926م، وهو عالم اجتماع، من مدرسة الجزائر. درس بـ "شالون سور

مارن" (Châlons-sur-Marne) - حيث كان والده أستاذًا فى قسم الزراعة - ثم اتّبع التعليم بالمتحف وتردّد على الأوساط الأدبية بباريس. وقد أجبرته أعراض مرض السل للسفر إلى الجزائر، أين التقى بصديق الطفولة، ابن العقيد تيودور باين (Théodore Pein)، مؤلف كتاب رسائل مألوفة عن الجزائر: مملكة عربية صغيرة سنة 1871. أصبح "دوتي" فى يناير 1892، ملحماً بالحكومة العامة، نائباً لمدير بلدية مختلطة بـ "الأوراس"، لكن حالته الصحية سرعان ما أجبرته على طلب التحوّل إلى وظيفة محرّر فى محافظة وهران سنة 1894. حصل على تقدير جيّد، فتابع التعليم لدى "مولييراس" (Moulières) وحصل على إجازة لتحضير شهادة مدرسة الآداب بالجزائر العاصمة، حيث نال عمله إعجاب وتوقعات المفكر "رينيه باسي" (Réné Basset)<sup>7</sup>.

أدى نجاحه إلى تعيينه سنة 1898 فى منصب أستاذ الأدب فى مدرسة "تلمسان" التى كان "ويليام مارسيه" (William Marçais) قد تولى إدارتها للتو. وبسبب مرضه وتفضيله البقاء بالجزائر العاصمة مع زوجته وطفليه، لم يتمّ له الانضمام إلى المنصب الذى تمّ فيه - فى نهاية المطاف - تعيين "ألفريد بيل" (Alfred Bel). نشر عمله "ملاحظات عن المغرب الإسلامى" فى "مجلة تاريخ الأديان" (Revue de l'histoire des religions). وأعيد على الفور نشر كتابه "المرابطون" (Les marabouts)، فى مجلد سنة 1900. وهو كتاب مخصّص لعبادة الأولياء الصالحين فى البلدان المغاربية، ومكانتهم، ونشأتهم وتطوّرهم، والمصطلحات المطلقة عليهم، ودور النساء المرابطات. وقد درس الطوائف المرابطية ودورها الاجتماعى والسياسى... الخ.<sup>8</sup> وبعد مرور خمسة عشر عامًا على نشر كتاب "المرابطون والإخوان" (des Marabouts et khouans) لـ "لويس رين" (Louis Rinn)، قام "دوتي" بتجديد المنظور، مع الأخذ فى الاعتبار أعمال "غولدزيهر" (Goldziher) و "سنوك-هورقرونج" (Snouck-Hurgronje)، بالإضافة إلى التحقيقات الإثنوغرافية الأخيرة حول المغرب التى أجراها "مولييراس" (Moulières)، و "لامارتينيير" (La Martinière)، و "لاكروا" (Lacroix)، و "شارل دو فوكو" (Charles de Foucauld). ويخلص إلى أولوية عبادة القديسين الموروثة من خلفية دينية معادية للإسلام antéislamique. وقد لخص أفكاره حول الإسلام الجزائرى بالمعرض العالمى بباريس فى سنة



1900، وكان حينها مسؤولاً عن إنشاء فهرس المخطوطات العربية لمساجد الجزائر (1899-1900)، وذلك قبل أن يتم إرساله في مهمة مدتها سنة واحدة إلى المغرب (1900-1901)<sup>9</sup>. يتضمن ذلك دراسة المناطق التي ظلت دون اتصال بالحدثة الأوروبية، ولكن أيضًا التحضير لدمج البلاد في منطقة النفوذ الفرنسي. وأصدر تقريراً بعنوان "وسائل تطوير النفوذ الفرنسي في المغرب" (1900)، والذي يسرد -من وجهة نظر جزائرية- إجراءات ضمان التغلغل الفرنسي، ببراعماتية تفتقر في بعض الأحيان إلى التعاطف والتعاضد. وقام ببعثات أخرى متتابعة عدّة، من بينها واحدة كانت إلى فكيك Figuiك سنة 1902.<sup>10</sup>

تم تعيين "دوتي" في عام 1901، مسؤولاً عن خدمة المطبوعات العربية للحكومة العامة بالجزائر، ودورة دروس في اللغة العربية العامة في مدرسة الآداب. وبعد تفضيل جورج إيفر Georges Yver سنة 1903 على كرسي تاريخ الجزائر الحديث، تمّ استبدال مقرر "دوتي" اللغوي بدورة عن تاريخ الحضارة الإسلامية سنة 1905. نشر دروس دورته حول المجتمع المسلم في المغرب "السحر والدين في شمال أفريقيا عام 1908، وأعيد نشره بدار "غونير/ ميزونوف" Geuhner/Maisonneuve عام السوسولوجيا في 1984، وتمّ تلقيه ببعض التحفظات، ورغم ذلك فقد ساهم بالعديد من التقارير في السلسلة الجديدة للجهاز الدوركيامي l'organe durkheimien. وقد شغلت بعد ذلك مهماته المغربية معظم وقته، فنشر تقارير في المخابرات الاستعمارية في مراكش، والتي نشرتها لجنة المغرب، وهو وصف لمسار الرحلة التي أخذته من الدار البيضاء Casablanca إلى أبواب مراكش Merrâkech، عبر أزموir Azemmoûr ودكالة Doukkâla ورحامنة Rehâmnna في سنة 1905. تم توضيح العمل بالعديد من الصوّر الفوتوغرافية، وقد حصل على جائزة "AIBL".<sup>11</sup>

كان دوتي يسافر عبر البلاد مرة أخرى كلّ شتاء بين عامي 1906 و 1909 مع "معاونيه الأصليين المخلصين"، سي علال عبدي وسي بومدين بن زيان، وبدعم مادي من التعليم العام والشؤون الخارجية، وبتشجيع من الجمعية الجغرافية Société de géographie، والجمعية

الجغرافية التجارية Société de géographie commerciale ، والاتحاد الاستعماري.<sup>12</sup> L'Union colonial وقد كان قليل الاندماج في البعثة العلمية للمغرب، التي أكد لو شاتيليه Le Chatelier بغيرة على استقلالها في مواجهة جامعة الجزائر، فإنه لا يشارك المواقف الجزائرية المعادية للمخزن: فبدلاً من معارضة السلطة الملكية الأجنبية والشعب البربري المتمردة، يدعوننا إلى الاعتراف بخصوصية النظام المغربي فيما يتعلق بالمفهوم الفرنسي للدولة المركزية. نشر مع إميل فيليكس غوتيه Emile-Félix Gautier "دراسة حول تشتت اللغة البربرية في الجزائر"، عام 1913، وهي دراسة تؤهل استنتاجات ماسكيراي Masqueray حول تراجع البربر: "فبدلاً من أن تحتفي الحضارة البربرية أمام الحضارة الفرنسية، فهي تحتفي أمام الحضارة الإسلامية والعربية".<sup>13</sup> كتاب تناول فيه "دوتي" المسح الإداري الشامل الذي أجري -بأمر من الحاكم العام- لتحديد المناطق التي يتكلم فيها البربر (الأمازيغ) بأكبر قدر ممكن من الدقة لغتهم الأصلية، والمناطق التي تم فيها التخلي عنها لصالح العربية. فمسألة تراجع البربرية (الأمازيغية) بالنسبة له، حقيقة يجب على السلطات أن تأخذها في الحسبان، لأنها تنطوي على تغير عميق في الشعب الذي يهجر لغته، مع ما يترتب على ذلك من عواقب بعيدة المدى.<sup>14</sup> ويستخلص من بعد الدراسة التي أجراها مع "فيليكس غوتيه"، بأن البربرية في تراجع كبير وأن الفرنسيين في الجزائر هم الذين ساهموا في تعريب البربر من حيث اللغة: فقد اتخذوا من البربر عرباً منذ عشرات السنين، وفرضوا عليهم اللغة العربية فرضاً فعلياً عن طريق الإدارة والقضاء وممارسة الإسلام.<sup>15</sup>

غالباً ما كان "دوتي" في إجازة بسبب حالته الصحية غير المستقرة، وقد خصص عام 1913-1914 لكتابة بعثاته إلى المغرب "في القبيلة" En tribu، بأسلوب يتسم بجماليات رمزية، فهو يتقن الشكل الحي الذي تم اختياره بالفعل لمراكش، وهو قصة السفر المفيدة التي تذكر بما لا نهاية للعلم وتربط القارئ بمهمة المؤلف<sup>16</sup>. كتاب مرفق بالكثير من الصور الفوتوغرافية، يصف فيه طبيعة المغرب ومناخه والمدن والقبائل والأسواق وحاشية الملك، ووضع المرأة... الخ.<sup>17</sup> ويختتم "دوتي" بدعوة إلى إنشاء محميات طبيعية في المغرب حفاظاً عليها من الدمار الذي تسببه الحضارة، وهو اقتراح متأثر بلا شك بإيمرسون Emerson، وترجمه ميترلينك Maeterlinck الذي يبدو أنه مرتبط به.

تجلى طموحه الأدبي مرة أخرى عندما تعاون مع فرناند نوزيير Fernand Nozière في كتابة مسرحية امرأ القيس Imroulcaïs، وهي مسرحية أدها إيدا روبنشتاين Ida Rubinstein على مسرح سارة برنهاردت Sarah Bernhardt عام 1919.<sup>18</sup>

كان دوتي خلال الحرب تحت تصرف وزارة الخارجية لتوجيه القسم الإسلامي الجديد من الصحافة الفرنسية والدعاية في الخارج، وعمل بعد الحرب أمينا عاما للجنة المشتركة بين الوزارات لشؤون المسلمين. وقد عمل في هذا السياق، على تأجيج القومية ضد الوحدة الإسلامية، واهتم بمراقبة العمال الجزائريين والمغاربة في فرنسا، وأعدّ لتأسيس خدمة مساعدة السكان الأصليين في شمال إفريقيا (SAINA) عام 1924. وقام في الوقت نفسه، بتدريس التاريخ السياسي والاجتماعي لشمال إفريقيا في المدرسة الاستعمارية وفي المدرسة الحرة للعلوم السياسية. وتمّ في عام 1925، تفضيل ستيفان جيزيل Stéphane Gesell لتمثيل الجزائر في معهد الإثنولوجيا بجامعة باريس. توفي "دوتي" قبل وقت قصير من مغادرته لإجراء تحقيق أنثروبولوجي جديد في المغرب.<sup>19</sup> يبقى أهمّ كتاب لـ "دوتي" عن الطقوس والفرجة الشعبية هو كتاب "مراكش" الذي يحتوي على 408 صفحة، والعديد من الصور، والذي تناول فيه: طقوس المطر Rites de la pluie والعنصرة Ansra، وإنائر Innâir، والجنائز والميلاد والزواج والألعاب الشعبية... والفرجة La Farâja.<sup>20</sup> لكن الكتاب الأكثر أهمية عن الفرجة الشعبية هو كتاب "السحر والدين في شمال إفريقيا" Magie et religion dans l'Afrique du Nord الذي سنعتمد عليه كثيرا في هذه الدراسة.<sup>21</sup>

### 3. الدراما الشعبيّة الجزائرية في كتابات إدموند دوتي وخلفيات النظرية

مثملا ذكر سابقا، إنّ أهمّ كتاب عن الدراما الشعبيّة لـ "دوتي" هو كتاب "السحر والدين بشمال إفريقيا" Magie et religion en Afrique du Nord، الذي نُشر سنة 1909. ويحتوي على 617 صفحة. يذكر "ألفريد بيل" Alfred BEL بأنّ "دوتي" كان يشغل كرسي الحضارة الإسلامية في مدرسة الآداب بالجزائر العاصمة، وأنّ كتابه "السحر والدين بشمال إفريقيا"

ولد - كما أعلن دوتي - من الدروس المقدّمة لطلابه، موضوعها "تطبيق النظريات على الظواهر الدينية التي لوحظت في شمال إفريقيا على مدى نصف قرن من قبل علماء الإثنوغرافيا وخاصة المدرسة الأنثروبولوجية الإنجليزية والمدرسة الاجتماعية الفرنسية. لم يقتصر فيه "دوتي" على البحث في مؤسسات ومعتقدات المغاربة الشعبية التقليدية، التي يفترض مجيئها من الحضارات الأخرى، بل سعى - قبل كل شيء - إلى تقديم السبب الاجتماعي والنفسي للمؤسسات وتطوّرها العلماني.<sup>22</sup>

يربط "دوتي" الكرنفال - أو الدراما الشعبية بالجزائر - ببقايا السحر القديم، فالكرنفال هو بقايا السحر القديم بامتياز (**Les débris de l'antique magie : le carnaval**)، فدرس بقايا الطقوس القديمة في الإسلام المغاربي، ليوضح فكرته تلك، وكانت فرجة عاشوراء - كإرنفال عاشوراء - ثم عيد الأضحى موضوعي بحثه المفضّل، إذ قدّم تفاصيل الاحتفالات، التي كانت ترفق بوجبات الفول والتنكر والمشاهد الهزلية وقتل التنين (الوحش) وما إلى ذلك من تفاصيل كثيرة. ويذكر "دوتي" قبل شروعه في عرض ودراسة ما يسميه بالكرنفال، أنّه لاحظ منذ زمن طويل وجود عادات شعبية في بلدان المغرب العربي، شبيهة بكرنفالهم الأوروبي، ويقول بأنّه سيذكر ما يعرفه عنها. ويوضح بأن تلك العادات الشعبية - الكرنفال - قد لوحظت بشمال إفريقيا بـ "ورقلة"، بشكل كبير. يذكر أنّه بمناسبة عيد المسلمين، - أي العاشر من شهر محرم وهو أول شهور السنة الإسلامية - يتناول السكان الأصليون وجبات وفيرة يغلب عليها الفول، حتى أن هذه الفترة تسمى في الغالب بـ "عيد الفول".<sup>23</sup>

ولفهم سبب حضور الفول بقوة في احتفالات عاشوراء، يفضل الرجوع إلى رمزيته، فالفول طبعاً ذو رمزية مرتبطة بالشمس، وهو من بين البذور المستخدمة في القرايين الطقسية في الحرت والأعراس، كما أنّ الفول رمزٌ للموتى ورخائهم، ويستخدم في التعويضات الواقية. وتمثّل القربان الربيعية، أول عطاء من تحت الأرض، وأول قربان من الموتى للأحياء، وعلامة على خصوبتهم.<sup>24</sup> عن فكرة تخليص الوحش من قناعه بعد التغلب عليه، تأتي إلى ذهننا فكرة ارتباط القناع بالموت، وانتزاعه بالعودة إلى الحياة، بمعنى تجسّد فكرة الموت والبعث والتجدّد، في الدراما والفرجات الشعبية. فالمصريون القدماء كانوا يقتنعون موتاهم فقط. وتجدد الإشارة أيضاً إلى أن حضارة النيل استخدمت أنواعاً أخرى من



الأقنعة بالإضافة إلى القناع الجنائزي. فقد كان الممثلون الذين يصورون الآلهة الحيوانية مقتنعين في طقوس درامية معينة، تتخللها فواصل رقصات مصممة لنقل القوة المتجسدة في الحيوان إلى الإله الذي يرتدي القناع.<sup>25</sup>

ويشير "دوتي" إلى بعض معتقدات "عاشوراء" مثل الامتناع عن ضرب الأرض بالعصا أو المجرفة، والسبب في ذلك -حسب معلوماته الاثنوغرافية- هو اعتقاد السكان الأصليين بأن يوم عاشوراء يمثل ذكرى خلق الأرض.<sup>26</sup> وقد يرجع ذلك في رأينا إلى الاحتفال بعيد آلهة الأرض، يذكّرنا هذا بأسطورة الإلهة "بالاس" والفتاة "أراخي"، الفائقة المهارة في تطوير النسجيات. وقد مسحت الإلهة "بالاس" "أراخي" عنكبوتا، لأنها تحدّتها في عيدها، فبدل الانشغال بعبادتها والامتناع عن العمل، انشغلت بالنسج، وهكذا دعت عليها بأن تدوم حياة معلقة في الهواء إلى الأبد، وهي منشغلة بنسجها كما كانت تفعل.<sup>27</sup> وفكرة الامتناع عن النسج في يوم "عاشوراء" منتشرة عندنا بالجزائر وبمنطقة القبائل إلى حدّ الآن.

ومن الطقوس الكرنفالية، خروج الناس مساء إلى الشوارع متنكرين، ووجوههم مغطاة بأقنعة. وهم في ذلك يقلّدون أنواع الحيوانات الشعبية والأسود والجمال، ومما يلاحظ في ذلك اليوم، شخصا يسوق جملا ويصارعه، في حين أنّ ذلك الجمل لا يكاد يتحمل حمله، فيحتج بصراخه الأَجَش والمطوّل، فيجثم على الأرض، ثم ينهض فجأة، ثم يجثم مرة أخرى تحت ضغط يدي السائق، ثم يركض ويحاول العض، وينجح السائق أخيراً، على حساب ألف حيلة مفتعلة، في إخضاعه.<sup>28</sup> ويعلق "دوتي" على مشاهد الكارنفالات هذه على أنّها تمثيل ومحاكاة متقنة تثير الدهشة، فأدنى حركات الحيوان وأوضاعه ومختلف إشارات صوته يتم تقليدها على نحوٍ مثير للإعجاب. والجمل رمز للرزانة، ومرتبطة بالموت، ويصوّر كالجبل الذي يساعد الإنسان في عبور الصحراء، مما يمكنه من الوصول إلى المركز الخفي، إلى الجوهر الإلهي. وهناك من يعتقد -في الثقافات الآسيوية وغيرها- في الجمل الطائر حارس الصحراء، على غرار التنين المجنّح والحية المجنحة.<sup>29</sup>

ومن مشاهد الكرنفال التي ذكرها "دوتي" بنوع من التفصيل أيضاً، مشاهدة جنرال، صدره مزين بزخارف من الصفيح وأشرطة من مختلف الألوان، يرافقه طاقمه، وهو متوجه لزيارة زميله قائد البلدة، وبعد تحية عسكرية، يتظاهر الضابطان بأنهما يتبادلان حديثاً جاداً. كما تُشاهد مجموعة من السكان الأصليين ذوي اللحى الضخمة، يرتدون قنادير طويلة وقلنسوات حمراء، ويحملون مسابيح طويلة جداً حول أعناقهم، إنهم الآباء البيض، الذين يمشون بوقار بأيديهم المتشابكة وعيونهم الموجهة إلى الأرض. يُضاف للمشاهد السابقة، مشهد للطوارق ذوي الوجوه المنقبة، وأيديهم المسلحة برماح خشبية طويلة، ومشهد للسودانيين بملابسهم الرثة. وبينما تتوالى هذه المشاهد، يظهر شخص طويل القامة بشارب طويل ولحية حمراء، يرتدي ملابسه بنوع من الاهتمام ويحمل على رأسه فنوراً ضخماً (un immense guennour) مربوطاً بإحكام بحبل غليظ من شعر الإبل، إنه "لخضر باش غاغا"، من الأغواط. الذي يمثل الزعيم الأصلي في طريقة تجعيد شاربه، وفي مشيته المتراخية وطريقة لبسه للبرنوس، حيث الجناح الأيمن مرمي على كتفه، والجناح الأيسر مطوي تحت ذراعه.<sup>30</sup>

وهناك مشهد متكرر في الكارنفالات الشعبية، يتم فيه تصوير قاعة المحكمة، تظهر امرأة تشكو سوء معاملة الزوج، وفي دفاعه يدّعي الزوج بأنه يوفر جميع احتياجات زوجته بإخلاص، بما في ذلك واجباته كزوج، ويصدر القاضي في النهاية حكماً. ويذكر "دوتي" مشهداً آخر من الكرنفال، ذا أهمية ورمزية طقوسية غابرة، إنه مشهد "قتل التنين" الأكثر إثارة، لأنه المشهد الأقدم على الأرجح في نظره. إنه مشهد يصور في الهواء الطلق قتلَ تنين غاضب *la mise à mort d'un dragon* furieux، وهو نوع من القتال الفردي بين وحش عديم الشكل يحمل سلماً على ظهره ورأسه في شكل جمجمة جمل أو حفنة لحاء النخيل بعينين في شكل جمرتين ملتهبتين، وشخص حافي القدمين مسلح ببندقية. وأثناء هزيمة الوحش يندفع جمهور العرض، يجردونه من جلده. وقد كان الوحش يوصف غالباً بكونه أسداً، وبمجرد موته يعرض الجمهور لحمه في المزاد العلني.<sup>31</sup>

ولفهم هذا المشهد أكثر يجب فهم رمزية الأسد والتنين، وعملية قتل هذا الحيوان وذاك الوحش. فالأسد ملك الحيوانات وملك القوة وصاحب السيادة. وهو رمز الشمس والنور إلى أقصى الحدود، مشحون بالصفات والعيوب الملازمة لرتبته. إنه من جهة تجسيدٌ للقوة والحكمة والعدل، ومن جهة

أخرى تجسيد للكبرياء المفرط، فتقته بنفسه تجعل منه رمزاً للأب والسيد والملك المبهور بقوته، والمعمر بنوره، والذي يصبح طاغية معتقداً أنه حاميًا. لذلك يمكن أن يكون مثيراً للإعجاب كما يمكن أن يكون غير محتمل: تتأرجح معانيه الرمزية العديدة بين هذين القطبين. والأسد ذو قدسية دينية في الكثير من الثقافات.<sup>32</sup>

أما التنين فهو يقدّم في الأساس كحارس صارم أو رمز للشر والنزعات الشيطانية. إنه حارس الكنوز المخفية، وبالتالي فهو الخصم الذي يجب هزيمته للوصول إليها. ففي الثقافة الغربية نجده حارسا للفروة الذهبية وحديقة هيسبيريدس، وفي إحدى الحكايات الصينية، يبدو حارسا للؤلؤة، وتؤكد أسطورة سيغفريد أن الكنز الذي يحرسه التنين ليس سوى الخلود.<sup>33</sup> بعدما عرض "دوتي" نماذج من كرنافالات عاشوراء السابقة بـ"ورقلة"، يذكر بأن الكرنفال موجود أيضا بـ"الزيان" و"الأوراس"، ولا يبدو أنه موجود في أماكن أخرى من الجزائر؛ وهو غير معروف في الأغواط ومزاب على وجه الخصوص.<sup>34</sup> غير أنّ كرنفالات استقبال الربيع معروفة بمنطقة القبائل باسم "أفغاز أشقوف" -شيخ الفخار المكسور- ومازالت تمارس بقرى "بجاية" إلى يومنا هذا، وقد حضرنا بعضا منها في السنوات الأخيرة.

وينتقل "دوتي" للحديث عن كرنفال عاشوراء بـ"توقرت" وبالذات بـ"وادي ريغ" l'Oued R'ir، والذي يشبه كرنفال ورقلة. يذكر الوجبة الطقوسية الوفيرة التي تشتمل الفول على وجه التخصيص، ويستوجب في هذا اليوم أن يأكل المرء حتى يشبع تماما، وإلا أصبته لعنة ملئ معدته بحصى جهنم. ويبدأ الكرنفال في اليوم الأول من هلال شهر محرم، كرنفال يبدأ بالأقنعة والتكر، وتكون فيه تمثيلات الأسد والجمل والنعام شائعة جدًا، وهناك أيضًا التنين، أما المشاهد الدرامية الرئيسية فهي القاضي الغريب، والزواج المخدوع الذي يُفضّل أن يكون إشارة إلى أحد الأوربيين، وكان من المستحب أن يقلّد بروح من السخرية -المشوبة بالتحقّظ- القائد الكبير لدائرة تقورت وضباط المكتب العربي، والسوّاح رجالا ونساء، والإنجليزي على وجه الخصوص. وفي المشهد بائع متجول قبائلي بين الجموع يصيح وينفث ببضاعته الخيالية، وهناك أناس مستقرون يحاكون البدو الرحل، وزنوج

عائدون من السودان، وفرسان عائدون من تمبكتو، يروون مغامراتهم الخارقة للعادة وهناك مجموعة أخرى تؤدى تمريناً عسكرياً على الطريقة الفرنسية.

وكثيرا ما يبتعد "دوتي" كباحث إثنوغرافي عن الموضوعية، ويسمح لنفسه بذاتيته كفرنسي وكمستعمر أن ينتقد خيالات الشعب المستعمر، حين يقول بأنّ الخيالات التي تنغمس فيها المخيلة الشعبىة ليست دائماً في ذوق مثالي، ويذكر الراقصة التي تحمل جيفة حمار دافعة الراقصين، فأحد الراقصين يحمل جيفة حمار يزعم الفضوليين ويدفعهم جانباً بفضل الرعب الذي يوزعه والرائحة النتنة التي تفوح من ثقله، ويحقق آخر نفس النتيجة بفضل مؤخرة زائفة مشعرة بأشواك النخيل، يسير بها إلى الوراء بين الجماعات. ويوضح بأنّ الاحتلال الفرنسي لم يحقق سوى تغييرات طفيفة على برنامج هذه الملاهى، ولم تختف سوى بعض العادات، ففي تقرت تمّ إلغاء فانتازيا الحمير العظيمة التي كانت تقام بحضور جميع السكان مجتمعين أمام قصر السلطان.<sup>35</sup>

نستخلص من تعليق "دوتي" مزاعم فرنسا التي تدّعي بأنها فتحت البلدان، التي استعمرتها، قصد تخضير شعوبها البدائية المتوحشة، والدليل على ذلك برأيه أنّه لم تمض إلاّ بضعة سنوات من التواجد الفرنسي بالجزائر، وإذا ببعض التغير الذي مسّ إلغاء بعض التقاليد البائدة، فما بالك بعد مرور سنوات وقرون أخر ؟ في حين أن ذلك النوع من الكارنفالات كان مازال موجودا بفرنسا وبأوروبا في تلك الفترة، وبطرق بدائية ومتوحشة، وقد ذكر "جيمس فرايزر" في كتابه الغصن الذهبي، نماذج من ذلك.

ينتقل "دوتي" للحديث عن كرنفال عاشوراء بـ "سيدي عقبة"، بالقرب من "بسكرة" حيث يتغطى السكان الأصليون بجلود الحيوانات ويضعون لحية طويلة من الصوف، وأغصان النخيل على ظهورهم ويسيروا في الشوارع. وبـ بسكرة نفسها، يتجول السكان الأصليون بالمدينة حاملين تمثال أسد. وبـ "ليانة" و"زربية الوادي"، بقبيلة زاب شرقي، يتنكر الرجال في زي نساء يطلق عليهن اسم "محرّمات"، ويرافقهنّ السكان الأصليون بجلود الحيوانات ولحي صوفية كبيرة. يمثل هؤلاء السكان الأصليون أزواجهم، حيث يرقصون جميعاً بعنف. وفي أثناء الكرنفال، في لحظة من اللحظات، يختطف شخص مغطى بجلد حيوان -معروف باسم بوليفة- إحدى "محرّمات"، فيسرع زوجها بحثا عنها، ولما

يَجدها، يتظاهر متسلحًا بعضا قوية يضرب بها المختطف، الذي يسقط وسط فرجة وفرجة الحاضرين. في ليانا Liana ، في زاب غبلي Zab Guebli، يُلبس السكان الأصليون تمثالين أحدهما في هيئة رجل والآخر في هيئة امرأة، يسمونهما ياغوصا Yaghhoussa ويعوقا Yaouka ، ويرى البعض أنهما صنمان قديمان.<sup>36</sup>

ينتقل "دوتي" -عملا بمنهج النظرية الأنثروبولوجيا التطورية (المقارنة) من مكان لآخر لرصد الظاهرة نفسها- لوصف كرنفال عاشوراء بـ"الأوراس". يذكر "دوتي" بأنه بدائرة "خنشلة" بقرية خنجة سيدي ناجي Khanga Sîdi Nâdji ، قرية من قرى قبيلة جبل يقام بمناسبة عاشوراء كرنفال مهم جدًا، والذين يؤدونه هم من منطقة "سوف" التي يفتقر إلى معلومات عنها، ويكتفي بوصف كرنفال السكان الأصليين هناك، ففي يوم عيد عاشوراء، يتنكر السكان الأصليون بطرق مختلفة، فالبعض يغطي بملابس يشبه لون الأسد أو الجمل، ويطوفون بالقرية مقلدين صياحهما، فالذين يقلدون الأسد يضعون على جانبي وجوههم مصباحًا مضاءً ليكون بمثابة عين، يرافقهم موسيقيون. ويذكر "دوتي" أنّ المخبرون -عند سؤالهم عن ذلك- يجيبون بأنه عندما مات أحد أبناء علي بن أبي طالب، صهر النبي، أرادوا إخفاء مكان دفنه الحقيقي عن أعدائه، فتمّ تمثيل دفنه بحمل تمثال -يمثل الجثة- على ظهر جمل، يتبعه حشد من الناس في عزاء. بالإضافة إلى ذلك، يتم تمثيل مشاهد درامية صغيرة في الشوارع، كمشهد زوج تخونه زوجته، وبالحكمة يصدر القاضي حكمًا باعتبارات غريبة.<sup>37</sup>

ويتمّ أيضا بـ "أولاد رشاش" بدائرة خنشلة أداء مشهد الصغير، يتنكر فيه ستة من السكان الأصليين، وهم في الغالب شباب، اثنان منهم يلعبان دور الأسد، والآخر امرأة شابة، ويرتدي أحدهم ملابس أنيقة للغاية يمثل زوج المرأة، وشاب آخر يرتدي ملابس أنيقة أيضًا يؤدي مهام شاوش المهرجان، أما الأخير، وهو الأكثر إثارة للاهتمام، فيرتدي ملابس متسول عجوز بلحية صوفية بيضاء وملابس قديمة، ويحمل مسبحة من أصدا ف الحلزون وسلّة مليئة بالأشواك على ظهره ليخز من يقرب منه من رفاقه. يقدم نفسه على أنه كاهن ويعلن أنه عاد لتوه من مكة المكرمة. ويقرأ الحاضر والماضي والمستقبل بين أيدي الحاضرين، ويتنبأ بتنبؤات لا تعدو أن تكون مجرد مزاح يستهدف به المستشارين.

ثم يتم تشكيل هيئة محكمة، يتم اختيارها من قبل المتفرجين. ويمثل الرجل العجوز، محاطاً بالأسد والشابة وزوجها، أمام المحكمة المرتجلة ويمسك معه وسط تحكمات الجمهور وسخرتهم.<sup>38</sup>

والملاحظ أنّ تمثيل دور الأسد متكرر في الدراما والفرجة الشعبىة، لما يمثله الأسد من رمز شمسيّ قدسيّ وصفات آخر قد يبدو فيها الكثير من الاختلاف. فإذا رجعنا إلى الثقافة العربيّة نجد القدماء يربطون بين الأسد والشمس المهيبة، فقد وصف أعرابيّ عينيّه بالحمروين ووهج الشّرر، كأثهما منقورتان في الحجر. ولونه وژدّ، وزثيره رعّد، هامته عظيمة، وجهته شتيمة، نابه شديد، وشّرّه عتيد، لا يهاب الليل، ولا الصبح.<sup>39</sup> وفكرة غموض وتعدّد رمزيّة الأسد توضّحها فكرة ارتباطه بالشمس، فالأسد يمثّل السيادة والقوّة، وهو رمز شمسيّ مضيء إلى أقصى الحدود، وملك الحيوانات، مشحون بالصفات الجيدة والعيوب. وإذا كان الأسد تجسيد للقوة والحكمة والعدالة، فإنّه من ناحية أخرى مفرط في كبريائه ممّا يجعله رمزاً للأب والسيد والملك الأعلى، ولهذا فهو مبهور بقوّة الخاصة وبنوره، إلى أن صار طاغية معتقداً أنّه الحامي، وقد مكّنه ذلك أن يكون محلّ إعجاب وتذمّر، وبين هذين القطبين تتأرجح العديد من المقولات الرمزيّة. كما نجد الكثير من الشخصيات الدينية التي يرمز لها بالأسد مثل بوذا الذي هو أسد الشاكيا، والمسيح أسد يهوذا، وعليّ صهر الرسول محمد أسد الله عند الشيعة، ولهذا فالعلم الإيراني محتوم بأسد متوجّج. ودور الأسد الرائع، غير متغيّر من أوروبا إلى إفريقيا وغيرها.<sup>40</sup> وفي الحضارات الاستوائية والأبراج الفلكيّة، يرتبط الأسد بالشمس المحرقة، وبالموت وهو يظهر مفترساً صغاره.<sup>(41)</sup> وكما ترتبط صورة الأسد بالشمس فهي ترتبط أيضاً بالغول (الوحش)، فصورة ورمزيّة الأسد المدمّر تقتنر بالغول، الذي ترتبط دلالاته بالاغتيال والهلاك والموت والتضليل والسحر والجنّ، فقد جاء في لسان العرب: "غول: غاله الشيء غَوْلاً واغتاله: أهلكه وأخذه من حيث لم يدر. والغول المنية... والتغول التلّون."<sup>42</sup>

ويرى -جيلبير دوران- أنّه يُعبّر في الكثير من الثقافات عن كسوف الشمس بأنّها مفترسة، فهي في الوقت نفسه أسد وفريسة للأسد. وهذا ما تفسّره عبارة "الشمس السوداء" وهذا من ازدواجية هذا الكوكب. والأسد المفترس للشمس رمز تقلّب الزمن المدمر ورمز النموذج الأصلي غيلان كلّ الفلكلور الأوروبي، الذين يتلعون الشمس.<sup>(43)</sup> وهكذا تتجسّد فكرة ارتباط "غيلان" الحكايات والأساطير



المحلية والعالمية برمزية الأسد والشمس المتقلبة في الوقت ذاته، والزمن المفلت غير المتحكم فيه. وما يجب التذكير به هو ما يسميه "يونغ" بالرموز والصور البدئية الأولية وهي رموز أبدية. ويرى بأن علماء الأنثروبولوجيا باستطاعتهم أن يبينوا "أنه بالإمكان إيجاد الأنماط الرمزية نفسها في طقوس أو أساطير المجتمعات الصغيرة التي ما تزال موجودة على أطراف الحضارات البشرية دون أن تتغير منذ قرون من الزمان".<sup>(44)</sup> فرمزية الغيلان والأسود وغير ذلك تمثل بقايا رموز علمية مرتبطة بالعقائد البدائية والأبدية. فالبحث في الفرجات الشعبية -من منظور الدراسات الاستعمارية- لم يكن لهدف علمي بحث، والدليل على ذلك أن كتب "دوتي" وغيره، أنجزت بطلب من الإداريين ومن الضباط ومن الحاكم العام، وهذا ما نلاحظه في الصفحات الأولى من كتبه، وقد نقلنا تفاصيل ذلك، في الإحالات والهوامش. بعدما درس "دوتي" كرنفال عاشوراء بالجزائر، بدأ بورقلة، وانتقل ل توفرت، ثم بسكرة، وبعدها الأوراس. لم يتوقف عند ذلك بل انتقل إلى تتبع الظاهرة بالمغرب، فدرسها بمراكش، لينتقل إلى تتبعها ببلدان أخرى، لدى الشيعة وأماكن أخرى. لم يكتف بذلك، فبعد أن تتبعها عبر المكان، تتبعها عبر الزمن، ليستخلص ارتباطها بميثولوجيا وأساطير التجدد، في الأديان القديمة. وكان مصدره الرئيسي نظرية فرايزر الأنثروبولوجية التطورية، وبصفة أخص كتابه "العصن الذهبي-دراسة في السحر والدين"، الذي صاغ على منواله كتابه "السحر والدين بشمال إفريقيا.

والنظرية الأنثروبولوجية التطورية، أول مدرسة فكرية في تاريخ الأنثروبولوجيا، انتشرت بين عامي 1850 و1910 بالتقريب. اهتمت بدراسة الشعوب التي تعاقبت عبر الزمن، والتي كانت في أواسط القرن التاسع عشر في كل أنحاء العالم على درجات متفاوتة ثقافيا وتقدما.<sup>45</sup> فالأنثروبولوجي التطوري الغربي كان يرى المجتمعات التقليدية صورة عن أجداده القدماء، وبالتالي فهو مهتم بإعادة بناء فترات ما قبل التاريخ التي عاشها أجداده، لكن التاريخ هنا تاريخ تخميني افتراضي، لأنه يبحث عن رواسب ما قبل التاريخ للتنظيمات الاجتماعية والدينية، انطلاقا من دراسة شعوب وُصفت بالبدائية والمتوحشة، والشفوية والخارجة عن التاريخ. ومن أهم الباحثين التطوريين الذين اهتموا بدراسة تلك الشعوب (البدائية) "باشوفن" Bachofen (1815-1887) الذي اهتم بأنظمة القرابة،<sup>46</sup>

و"لويس. هـ. مورغان" L. H. Morgan الذي درس الأنظمة الاجتماعية والسياسية واللغة،<sup>47</sup> و"إدوارد ب. تايلر" M. Edward. B. Tylor (1832-1917)، الذي حلل الأنظمة القربانية والمعتقدات الدينية، و"جيمس جورج فرازر" James George Frazer (1854-1941) الذي ركّز على دراسة الظاهرة الدينية وتطورها. فكلّ هؤلاء الأنثروبولوجيين التطوريين اهتموا في دراساتهم باستخلاص رواسب فترات ما قبل التاريخ، كلّ في مجال تخصّصه، سواء تعلّق الأمر بالأنظمة الاقتصادية أو السياسية، أو الاجتماعية والدينية.

والأهم من كلّ ذلك هو أنّ هذه النظرية تنطلق من كون الشعوب تمرّ بنفس الخطّ التطوري رغم كونها متفاوتة الثقافية والحضارية، فالأوروبي الذي وصل إلى قمّة الحضارة، سبق له وأن عاش فترة مثل التي تعيشها الشعوب "البداية" حديثاً، وبالتالي اعتقد الأنثروبولوجيون التطوريون الغربيون، بأنّه إذا أرادوا معرفة كيف عاش أجدادهم القدماء في فترات ما قبل التاريخ، فما عليهم إلّا معرفة حياة البدائيين، أو المتوحشين - كما يسموهم -، أمّا المصدر الآخر لمعرفة ما قبل تاريخهم فهو الآثار والتماثيل والأساطير والطقوس، هذه التي تحيى في عمقها رواسب فترات ما قبل التاريخ بمختلف أشكالها، من دينية ومجتمعية واقتصادية وغير ذلك. ولهذا يرى "دوتي" بأن الكرنفال وطقوسه بالجزائر والمغرب وبال دول المستعمرة، تعبر عن مرحلة دينية بدائية، هي مرحلة السحر، التي لم تصل بعد لمرحلة الدين، ولا يمكنها أن تصل إلى التغير والتطور والعلم إلّا بفضل الوجود الاستعماري.

يلخّص "فريزر" نظريته في نهاية كتابه بقوله: "إنّ حركة الفكر السّامية، بحدود قدرتنا على متابعتها، قد انتقلت من السحر عبر الدين إلى العلم. يعتمد الإنسان السّحري على قوّته الخاصّة ليواجه الصعوبات والأخطار التي تحيط به من كلّ جانب... وعندما اكتشف أنّه مخطئ، لاحظ بحزن أنّ نظام الطبيعة الذي افترضه والطريقة التي اتبعها للتحكّم به هما خيال واهم، فكفّ عن الاعتماد على ذكائه الخاصّ وجهوده الذاتية، ووضع نفسه ذليلاً تحت رحمة كائنات عظيمة غير مرئية خلف حجاب الطبيعة، والتي يعزو إليها الآن كلّ القوى البعيدة المنال التي كان يوماً ما ينتحلها لنفسه."<sup>50</sup> ويعني هذا الانتقال من مرحلة السحر إلى مرحلة الدين، التي جعلت الإنسان يعتمد على كائنات ماورائية بدل الاعتماد على نفسه بطقوسه السحرية. ويبدو أنّ "فرايزر" يفضّل مرحلة السحر على الدين، لأنّ

الدين — كما يبدو — بالنسبة له خضوع، ولهذا انتقل فكر الإنسان إلى مرحلة العلم الذي يجعله فرايزر، إذ يقول: "... وأخيرا توصل الإنسان... إلى مفتاح ذهبي يفتح الكثير من أقفال كنوز الطبيعة. وربما لا نغالي عندما نقول إنّ الأمل بالتطوّر — أخلاقيا كان أم فكريا أم ماديا — في المستقبل مرهون بالعلم، وأيّ عائق يوضع أمام الاكتشاف العلميّ هو جريمة بحقّ البشريّة... في العصور القادمة قد يتنبأ الإنسان وربما يتحكّم بمسارات الغيوم والرياح، لكنه لا يقوى بيديه الضعيفتين على أن ينشط كوكبنا المتراخي في مداره أو أن يعيد إضرام نار الشمس المتخامدة."<sup>51</sup>

### خاتمة

نستنتج من هذه الدراسة، أنّ المقصود بـ "مظاهر المسرح والفرجة الشعبيّة"، هو تلك الأشكال البدائيّة لفنّ الدراما، التي تجسّد الطقوس السحرية والدينيّة الغابرة، وهي بقايا المهرجانات المقنّعة الهادفة إلى الاحتفال بأهله الخصب في الثقافات الأولى "البدائيّة". وقد استخدم "دوتي" كثيرا مصطلح "الكرنفال" في دراسته للفرجة الشعبية بالجزائر، رغم كونه يحتفظ أحيانا بالمصطلحات الإثنوغرافية المحليّة مثل: "شايب عاشوراء"، و"بوجلود"، و"بوليفة" و"الفرجة"... الخ. ونرى بأنّه من المفصّل استخدام مصطلح "الفرجة الشعبيّة"، بل "الأعياد الشعبيّة" بصفة أخصّ، لارتباط مصطلح "العيد" بالعودة والتجدّد في الطبيعة و"الإنسان".

ونخلص إلى أنّ "دوتي" يمكن تصنيفه ضمن قائمة علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، والرحالة الإثنوغرافيين الاستعماريين المستشرقين، المهتمين بدراسة المجتمعات المستعمرة سياسيا واجتماعيا ودينيّا ولغويّا، قصد فهمها وتشريحها والسيطرة عليها من جميع جوانب الحياة، لما لا وهو يؤلف كتبه بطلب من الحاكم العام للجزائر أثناء الفترة الاستعماريّة.

ربط "دوتي" الفرجة الشعبيّة — أو كما يسميها بـ الكرنفال — ببقايا السحر القديم، ولكونه مهتم بالظاهرة الدينيّة، ودراستها من وجهة نظر أنثروبولوجيّة تطوّريّة، فقد اهتمّ بـ كرنفال "عيد الأضحى" وبصفة أدقّ كرنفال "عاشوراء"، فوصف بنوع من التفصيل أوقات الاحتفالات وأماكنها وأحداثها ومشاهدها وأقنعتها، والطقوس والمعتقدات المرافقة لها. وقد ربط مشاهد وطقوس فرجة عاشوراء وعيد

الأضحى الإسلاميين، ببقايا معتقدات دينية غابرة تمثل مرحلة السحر والدين بتعبير "فرايزر"، وهي مرحلة بدائية جدًا مقارنة بمرحلة الإيمان بالأديان التوحيدية، كاليهودية والمسيحية والإسلام. كما ربط فرجات الأعياد الدينية الإسلامية -الجزائرية والشمال إفريقية- هذه، بالأعياد الموسمية الطبيعية، ذات الصبغة العالمية الغابرة، وقد اعتمد في دراسته على النظرية الأنثروبولوجية التطورية التي تدرس الظاهرة الدينية انطلاقًا من تتبعها في المكان والزمان، وتحلل طقوسها المتشابهة، باعتبارها بقايا معتقدات السحر والدين الغابرين. وهكذا يتوصل "دوتي" إلى أنّ الكثير من طقوس الفرجة الشعبية بالجزائر، ما هي إلا تجسيد ودليل على وحشية وبربرية وبدائية أصحابها، ولهذا منعت السلطات الفرنسية بعضا منها، قصد تخضير شعوب مستعمراتها. وهي طبعًا نظرة ذاتية عنصرية استعمارية، وبالتالي يجب على الأنثروبولوجيين الوطنيين إعادة النظر في بعض الدراسات الاستعمارية، والعمل على إحياء الفرجات الشعبية وتحديثها لتعالج قضايا الواقع الراهن ببعديها الجمالي والترفيهي.

#### الهوامش:

<sup>1</sup> - ينظر، منير الحافظ، مظاهر الدراما الشعائرية -التجسيد الجمالي في مظان المقدّس ومنظومة التقاليد الأناسية، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الأولى 2009، ص 7.

<sup>2</sup> - Eugène Cortet : *Essai sur les fêtes religieuses et les traditions populaires qui se rattachent*, Ed Ernest Thorlin, Libraire Editeur, Paris, France, 1867, pp.60, 61.

<sup>3</sup> - Edmond Doutté, *Magie et religion en Afrique du Nord* .p.496.

<sup>4</sup> - voir Edmond Doutté, *Magie et religion...*p. 508.

<sup>5</sup> - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2005، ص 2808.

<sup>6</sup> - ينظر، م.ف. ألبديل: سحر الأساطير دراسة في الأسطورة -التاريخ-الحياة، ترجمة د. حسان ميخائيل اسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سورية، الطبعة الثانية 2008، ص 326.

<sup>7</sup> - Voir : François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, Editions KARTHALA, 2008, p.332.

<sup>8</sup> - Voir, Edmond Doutté, *Notes sur L'Islâm Maghriben-Les Marabouts*, Ed, Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1900.

<sup>9</sup> - Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française* p. 332.



<sup>10</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, p. 332.

<sup>11</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, p. 332.

<sup>12</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, p. 332.

<sup>13</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, pp. 332, 333.

<sup>14</sup> – voir : *Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, Faite par ordre de M. le Gouverneur Général, Publiée par Edmond Doutté, Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger, E. F. Gautier, Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger, Alger, Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur-Editeur, Place du Gouvernement, 1913, p. 3.*

<sup>15</sup> – *Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, Faite par ordre de M. le Gouverneur Général, Publiée par Edmond Doutté, Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger, E. F. Gautier, Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger, Alger, Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur-Editeur, Place du Gouvernement, 1913, pp. 156 ; 157.*

<sup>16</sup> – Voir François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, pp. 333.

<sup>17</sup> – Voir, Edmond Doutté, *En tribu*, Ed, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.

<sup>18</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, p. 333.

<sup>19</sup> – Voir, François Pouillon (éd), *Dictionnaire des Orientalistes de langue française*, p. 333.

<sup>20</sup> – Edmond Doutté, *Merrâkech, Ouvrage publié sous le patronage du Gouvernement Général de l'Algérie, et du Comité du Maroc, Ed Comité du Maroc, Paris, 1903.*

<sup>21</sup> – Edmond Doutté, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Ed Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur Libraire, Editeur, Alger, 1909.

<sup>22</sup> – ALFRED BEL, *Société de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran, Fondée en 1878 , Tome XXIX , 1909, imprimerie Typographique et Lithographique, L. Fouque, Rue Thuillier , 4 (place Kléber), 1909, p. 128 .*

<sup>23</sup> – Edmond Doutté, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, p. 496.

<sup>24</sup> - Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, Mythes, Rêves, Coutumes, Gestes, Formes, Figures, Couleurs, Nombres, Editions Robert Laffont/Jupiter, Paris, France, 1982, p. 438.

<sup>25</sup> - L'Anthropologie, les Dictionnaires du savoir moderne, Ed, Centre d'Etude et de Promotion de la Lecture, Paris, 1972, pp. 323-325.

<sup>26</sup> - Voir, Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, p. 497.

<sup>27</sup> - أوفيد، مسخ الكائنات، نقله إلى العربىة، ثروت عكاشة، الهيئة المصرىة العامة للكتاب، ط4، 1997، ص 233-237.

<sup>28</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, p. 496, 497.

<sup>29</sup> - Voir, Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, p. 204.

<sup>30</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 497, 498.

<sup>31</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 498, 499.

<sup>32</sup> - Voir, Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, p. 575.

<sup>33</sup> - Voir, Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, p. 366.

<sup>34</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, p. 5000.

<sup>35</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 500- 502.

<sup>36</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 502.

<sup>37</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 503.

<sup>38</sup> - Voir, Edmond Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, pp. 503.

<sup>39</sup> - ينظر: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النوىرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب الجزء 9، 10، 11، دار الكتب العلمىة، بیروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004م، 1424هـ، ص 142.

<sup>40</sup> - ينظر: Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, p.p, 575-577.

<sup>41</sup> - ينظر: جلیبیر دوران: الأنتروبولوجیا رموزها أساطیرها أنساقها، ترجمة د. مصباح الصمد، ص 61.

<sup>42</sup> - ابن منظور الإفريقى المصرى: لسان العرب، المجلد الثانى، منشورات مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، بیروت، لبنان، ط1، 1426هـ- 2005م، ص 2951-2953.

<sup>43</sup> - ينظر: جلیبیر دوران: الأنتروبولوجیا رموزها أساطیرها أنساقها، ترجمة د. مصباح الصمد، ص 62، 63.

<sup>44</sup> - كارل غ-بونغ: الإنسان ورموزه-سیكولوجیا العقل الباطن، ترجمة: عبد الکرىم ناصف، منشورات دار التكوين للتألیف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 2012، ص 131.

<sup>45</sup> - ينظر: جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، 1997، 64.

<sup>46</sup> - J. J. Bachofen, (1996) *Le droit maternel: Recherche sur la gynécocratie de l'Antiquité dans sa nature religieuse et juridique*, Traduit par E. Barilier, Ed L'Age d'Homme, Lausanne, Suisse, 1996.

<sup>47</sup> - L. H. Morgan, (1985) *La société archaïque*, Traduit par H. Jaouiche, Ed. deuxième édition, Anthropos, Paris, France, 1985.

<sup>48</sup> - Voir, M. Edward. B. Tylor, *La civilisation primitive*, Tome premier, Traduit par Pauline Brunet, , Ed, C. Reinwald, et C', Libraires-Éditeurs, Paris, 1876.

M. Edward. B. Tylor, *La civilisation primitive*, Tome second, Traduit par M. ED. Barbier, Ed, C. Reinwald, et C', Libraires-Éditeurs, Paris, 1878.

<sup>49</sup> - جيمس جورج فرايزر، الغصن الذهبي-دراسة في السحر والدين، ترجمة نايف الخوص، دار الفرق، دمشق، سورية، 2014.

<sup>50</sup> - جيمس جورج فرايزر، ص 899.

<sup>51</sup> - جيمس جورج فرايزر، ص 900، 901.

#### قائمة المصادر والمراجع العربية

1 - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2005.

2 - جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، 1997.

3 - جيلبير دوران: الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ترجمة د. مصباح الصمد، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2006.

4 - جيمس جورج فرايزر، الغصن الذهبي-دراسة في السحر والدين، ترجمة نايف الخوص، دار الفرق، دمشق، سورية، 2014.

5 - كارل غ-يونغ: الإنسان ورموزه-سيكولوجيا العقل الباطن، ترجمة: عبد الكريم ناصف، منشورات دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 2012.

6 - لام.ف. ألبديل: سحر الأساطير دراسة في الأسطورة-التاريخ-الحياة، ترجمة د. حسان ميخائيل اسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سورية، الطبعة الثانية 2008.

- 7 - سىأوفىد، مسخ الكائنات، نقله إلى العربىة، ثروت عكاشة، الهيئة المصرىة العامة للكتاب، ط4، 1997.
- 8 - منىر الحافظ، مظاهر الدراما الشعارىة -التجسید الجمالى فى مظان المقدس ومنظومة التقالید الأناسىة، النابا للدراسات والنشر والتوزیع، دمشق، سورىة، الطبعة الأولى 2009.
- 9 - شهاب الدین أحمد بن عبد الوهاب النورى، نهاية الأرب فى فنون الأدب الجزء 9، 10، 11، دار الكتب العلمىة، بیروت، لبنان، الطبعة الأولى 2004م، 1424هـ .

#### قائمة المصادر والمراجع بالفرنسیة

- 10 - ALFRED BEL, Société de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran, imprimerie Typographique et Lithographique, L. Fouque, Rue Thuillier , 4 (place Kléber), 1909.
- 11- Edmond Douuté, Notes sur L'Islâm Maghriben-Les Marabouts, Ed, Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1900.
- 12- Edmond Douuté, Merrâkech, Ouvrage publié sous le patronage du Gouvernement Général de l'Algérie, et du Comité du Maroc, Ed Comité du Maroc, Paris, 1903.
- 13- Edmond Douuté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, Ed Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur Libraire, Editeur, Alger, 1909.
- 14- Edmond Douuté et E. F. Gautier, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, Faite par ordre de M. le Gouverneur Général, Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur-Editeur, Place du Gouvernement, Alger 1913.
- 15 - Edmond Douuté, En tribu, Ed, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.
- 16 - Eugène Cortet : Essai sur les fêtes religieuses et les traditions populaires qui se rattachent, Ed Ernest Thorlin, Libraire Editeur, Paris, France, 1867.
- 17 - François Pouillon (éd), Dictionnaire des Orientalistes de langue française, Editions KARTHALA, 2008.
- 18- Jean Chevalier et Alain Gheerbrant : Dictionnaire des symboles, Mythes, Rêves, Coutumes, Gestes, Formes, Figures, Couleurs, Nombres, Editions Robert Laffont/Jupiter, Paris, France, 1982, p. 438.
- 19 - J. J. Bachofen, Le droit maternel: Recherche sur la gynécocratie de l'Antiquité dans sa nature religieuse et juridique, Traduit par E. Barilier, Ed L'Age d'Homme, Lausanne, Suisse, 1996.

- 
- 20 - L'Anthropologie, les Dictionnaires du savoir moderne, Ed, Centre d'Etude et de Promotion de la Lecture, Paris, 1972.
- 21 - L. H. Morgan, La société archaïque, Traduit par H. Jaouiche, Ed. deuxième édition, Anthropos, Paris, France, 1985.
- 22 - M. Edward. B. Tylor, La civilisation primitive, Tome premier, Traduit par Pauline Brunet, , Ed, C. Reinwald, et C', Libraires-Editeurs, Paris, 1876.
- 23 - M. Edward. B. Tylor, *La civilisation primitive, Tome second, Traduit par M. ED. Barbier, Ed, C. Reinwald, et C', Libraires-Editeurs, Paris, 1878.*